ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة الونشريس للدراسات التاريخية
ISSN:2800 – 1346
EISSN: 2830-8387
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/820
مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

المجلد: 01، العدد: 02	ذي الحجة 1443هـ/جويلية 2022م	الصفحات: 332-360

التصوف بين المجاهدة والثورة الروحية السري السقطي انموذجا.

Mysticism between jihad and spiritual revolution Al-Sari Al-Saqati as a model

سامي جودة الزيدي *
مركز ذي قار للدراسات التاريخية والاثارية/ جامعة ذي قار (العراق)
nourchabani@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الإرسال
2022/05/25
تاريخ القبول
2022/07/03

الكلمات المفتاحية:
التصوف،
الثورة الروحية،
السري السقطي،

الملخص:

بدأ التصوف كحركة زهد، مارسها المسلمون الاوائل ، متأسيين بزهد النبي (ص) ، فقد كانت الحياة في بداية الاسلام حياة بسيطة لا تتعدى ان يجد الانسان حاجاته الضرورية من الملبس والمأكل والمأوى، وقد كانت هناك طبقة فقيرة جدا تدعى اهل الصفة ، لم تكن تملك قوت يومها، ولم تكن الحياة معقدة كما هي اليوم ، فقد كان المسلم شغله الشاغل ان يجد ما يقوت يومه، واغلب انشغاله في العبادة وارتقاء درجات بسلم الايمان . وكلما يمتد الزمن تأخذ الحياة بالانفتاح والتجدد والتوسع والتعقد ، لقد كان للفتوحات الاسلامية الاولى اثرها في ظهور طبقة الزهاد ، اذ انهالت على الدولة الاسلامية جراء الفتح اموال طائلة ، وجواري وعبيد ، وصار المسلم بمقدوره ان يحصل على الثراء بحد سيفه ، اذ بمجرد ان يعتلي صهوة الجواد لينطلق صوب البلاد المحررة حتى يجني من خيراتها غنائم لا تعد . مما فتح الافاق الى الكنز والاكتناز ، وصارت الاكواخ التي تنام غرثى تأن من تخمة الشبع ، والجيوب الرثة من التراب تقطر ذهبا ، واخذت طبقة تصعد بشكل كبير ، واخرى ما تزال على حالها ، سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار طريقة الخليفة عمر بن الخطاب في تقسيم العطاء ، وما نتج عنها من تعددات طبقية ، فصار الكثير من الجياع تجارا واثرياء ، وهنا بدأت نقطة الانفصال الحقيقي بين الزهد التعبدي والرغبة في الحياة العصرية ذات الكنوز والزخارف ، وظلت طبقة من العباد ممن نأى بنفسه جانب عن ذلك الصراع الحياتي المقيت ، الذي اهمل فيه الانسان غايته التي كان يسعى من اجلها وهي نشر الاسلام في الارض ، فصار الهم الحصول على الاموال والجواري والعيش برفاهية ، مما دعا الزهاد الى البقاء متمسكين بالشريعة وممارسة الزهد في الحياة . ثم ان دائرة

* المؤلف المرسل

الترف والرفاهية اتسعت اكثر ، فوجد بعض الزهاد ان ممارسة الزهد بهذه الكيفية لا تكفي لتنبيه الناس الى الغفلة ، وان اعتراضهم على تلك الحياة دفعهم وبقوة الى اعلان زهدهم بطريقة اكثر مجاهدة ومكابدة وصبر ، فتحولوا الى التصوف .

تناول البحث معنى التصوف ومعنى كلمة صوفي، كما تطرق الى تاريخ التصوف ، واهم الدوافع التي دعت الى اتخاذ هذه الطريقة ، ثم تناول البحث سيرة السري السقطي كنموذج للمتصوفة، واهم الاسباب التي دفعت السري الى اتخاذ مذهب التصوف واتخاذ طريقة المكابدة والمجاهدة . وقد تطرق البحث الى اهم اراء الصوفية في الزهد والمجالدة والصبر .

Abstract:

Sufism began as a movement of asceticism, practiced by the early Muslims, imitating the asceticism of the Prophet (peace be upon him). Life at the beginning of Islam was a simple life that did not exceed the human being to find his necessary needs of clothing, food, and shelter. At that time, life was not as complicated as it is today, for the Muslim was his preoccupation with finding what would sustenance for his day, and most of his preoccupation was with worship and advancing degrees in the ladder of faith. And as time extended, life began to open up, renew, expand and complex. The first Islamic conquests had their impact on the emergence of the ascetic class, as huge money, maidservants and slaves were poured upon the Islamic state as a result of the conquest. To set out towards the liberated country to reap from its bounties uncountable spoils. Which opened the horizons to treasure and hoarding, and the huts that slept became sluggish from the glut of satiation, and the tattered pockets of dirt dripping with gold, and took a layer that rose dramatically, and others are still unchanged, especially if we take into account the method of Caliph Omar Ibn Al-Khattab in dividing the giving. And what resulted in the multiplicity of classes, and many of the hungry became merchants and wealthy, and here began the point of real separation between devotional asceticism and the desire for a modern life with treasures and adornments, and a class of servants who distanced themselves from that life's abhorrent struggle, in which man neglected his goal He was striving for it, which is to spread Islam on the earth, so the concern became to obtain money and concubines and to live in luxury, which called ascetics to remain adherent to the Sharia and to practice asceticism in life. Then the circle of luxury and luxury expanded more, and some ascetics found that practicing asceticism in this way is not enough to alert people to negligence, and that their objection to that life prompted them strongly to declare their asceticism in a more striving, suffering and patience way, so they turned to Sufism.

The research dealt with the meaning of Sufism and the meaning of the word Sufi, as well as the history of Sufism, and the most important motives that called for adopting this method. The research touched on the most important Sufi views on asceticism, perseverance, and patience.

Article info

Received:
2022/05/25
Accepted:
2022/07/03

Key words:
mysticism, spiritual revolution, septal secret,

المقدمة:

بدأ التصوف كحركة زهد، مارسها المسلمون الاوائل، متأسيين بزهد النبي (ص) ، فقد كانت الحياة في بداية الاسلام حياة بسيطة لا تتعدى ان يجد الانسان حاجاته الضرورية من الملبس والمأكل والمأوى، وقد كانت هناك طبقة فقيرة جدا تدعى اهل الصفة ، لم تكن تملك قوت يومها، ولم تكن الحياة معقدة كما هي اليوم ، فقد كان المسلم شغله الشاغل ان يجد ما يقوت يومه، واغلب انشغاله في العبادة وارتقاء درجات بسلم الايمان . وكلما يمتد الزمن تأخذ الحياة بالانفتاح والتجدد والتوسع والتعقد، لقد كان للفتوحات الاسلامية الاولى اثرها في ظهور طبقة الزهاد، اذ انهالت على الدولة الاسلامية جراء الفتح اموال طائلة ، وجواري وعبيد ، وصار المسلم بمقدوره ان يحصل على الثراء بحد سيفه ، اذ بمجرد ان يعتلي صهوة الجواد لينطلق صوب البلاد المحررة حتى يجني من خيراتها غنائم لا تعد . مما فتح الافاق الى الكنز والاكتناز ، وصارت الاكواخ التي تنام غرثى تأن من تخمة الشبع ، والجيوب الرثة من التراب تقطر ذهبا ، واخذت طبقة تصعد بشكل كبير ، واخرى ما تزال على حالها ، سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار طريقة الخليفة عمر بن الخطاب في تقسيم العطاء ، وما نتج عنها من تعددات طبقية ، فصار الكثير من الجياع تجارا واثرياء ، وهنا بدأت نقطة الانفصال الحقيقي بين الزهد التعبدي والرغبة في الحياة العصرية ذات الكنوز والزخارف ، وظلت طبقة من العباد ممن نأى بنفسه جانب عن ذلك الصراع الحياتي المقيت ، الذي اهمل فيه الانسان غايته التي كان يسعى من اجلها وهي نشر الاسلام في الارض ، فصار الهم الحصول على الاموال والجواري والعيش برفاهية ، مما دعا الزهاد الى البقاء متمسكين بالشريعة وممارسة الزهد في الحياة .

ثم ان دائرة الترف والرفاهية اتسعت اكثر ، فوجد بعض الزهاد ان ممارسة الزهد بهذه الكيفية لا تكفي لتنبيه الناس الى الغفلة ، وان اعتراضهم على تلك الحياة دفعهم وبقوة الى اعلان زهدهم بطريقة اكثر مجاهدة ومكابدة وصبر ، فتحولوا الى التصوف . ولعل

الزهد لغة : هو الاعراض عن الشيء ، وهو ضد الرغبة والحرص على الدنيا ، وهو الشيء القليل ([1]) . وقد نجد مصداق ما ذهبنا اليه في قول السهروردي : (كان في زمن رسول الله (ص) اصحاب رسول الله يسمون الرجل صحابيا لشرف صحبته الرسول ، وكون الاشارة اليها اولى من كل اشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله صار من اخذ من العلم يسمى تابعي ، ثم تقدم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة انقطع الوحي السماوي ، وتوارى النور المصطفوي ، واختلفت الآراء وتنوعت الانحاء وتفرد كل ذي رأي برأيه وكدر شرب العلوم وشوب الاهوية ، وتزعزعت ابنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين في الدنيا ومحبتها ، وتفرد طائفة بأعمال صالحة واحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها ، واغتنموا الوحدة والعزلة ، وأتخذوا زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون اخرى اسوة بأهل الصفوة ،تاركين الاسباب متبتلين الى رب الارباب ، فأثمر لهم صالح الاعمال سني الاحوال ، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها واشارات يتعهدونها ، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير الى معاني يعرفونها وتعرب عن احوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به ([2]) .

ولعل النصف الثاني من القرن الاول الهجري شهد اول ظهور لمصطلح (الصوفي) باعتراف الحسن البصري الذي قال : (رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا ولم يأخذ وقال : معي اربعة دوانيق فيكفيني ما معي) وقول سفيان الثوري : (لولا ابو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء) وقد علق الغزالي على القولين قائلا : وهذا يدل على ان هذا الاسم كان يعرف قديما ([3]). قال القشيري : ان المسلمين بعد رسول الله لم يتسم افاضلهم بتسمية علم ، سوى صحبة رسول الله (ص) لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم الصحابة ، ولما ادركهم اهل العصر الثاني سموا بالتابعين ، ورأوا في ذلك اشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم اتباع التابعين ، ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم

شدة عناية بأمر الدين (الزُهاد والعُباد) . ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا ان فيهم زهادا ، فأنفرد خواص اهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الفعلة باسم التصوف ، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة ([4]) .

ويذهب ماسنيون(Massignon) ومصطفى عبد الرزاق ، الى ان لفظ (صوفي) لقبا مفردا ظهر لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، اذ نعت به جابر بن حيان وهو صاحب كيمياء شيعي ، من اهل الكوفة ، له في الزهد مذهب خاص ،وابو هاشم الكوفي المتصوف المشهور . اما صيغة الجمع (الصوفية) فقد ظهرت عام (199هـ) في خبر فتنة قامت بالإسكندرية فكانت تدل قرابة ذلك العهد فيما يراه المحاسبي والجاحظ على مذهب التصوف الاسلامي يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة ، وكان عبدك الصوفي اخر أئمته ، وهو من القائلين بان الامامة بالتعين ، وكان لا يأكل اللحم ، وتوفي في بغداد حوالي عام (210هـ) فيمكن القول ان كلمة صوفي كانت بداية امرها مقصورة على الكوفة ، ثم قدر لهذا الاسم ان يكون له شأن فيما بعد ، فما ان انقضت خمسون سنة حتى اصبح يطلق على جميع الصوفية في العراق في مقابل (الملامتية) وهم الصوفية بخراسان ، ثم بعد قرنين من الزمن صار هذا الاسم يطلق على جميع اهل الباطن من المسلمين ([5]) .

ولسنا هنا بصدد مناقشة الآراء في اصل التسمية ، الا اننا نتفق كثيرا مع من يذهب الى ان اصل التسمية جاء صفة على لباسهم الذي كانوا يرتدونه من الصوف ، وقد قال الغزالي : (انهم اختاروا لبس الصوف لكونه كان ارفق ، وكان لباس الانبياء) . فقد كان رسول الله (ص) ، يجيب دعوة العبد ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف . وكان عيسى (ع) يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث امسى . وقال الحسن البصري : لقد ادركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف ، ووصفهم ابو هريرة وفضالة :

كانوا يخرون من الجوع حتى تحسبهم الاعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف ، حتى ان بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن اذا اصابه الغيث ([6]) .

السري السقطي :

أبو الحسن سري بن المغَلس السقطي أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه وكان تلميذ معروف الكرخي ([7]) . وقيل البغدادي الزاهد ، علم الأولياء في زمانه ([8]) . الامام القدوة ، شيخ الاسلام ، ولد في حدود الستين ومئة . وحدث عن : الفضيل بن عياض ، وهشيم بن بشير ، وأبي بكر بن عياش ، وعلي بن غراب ، ويزيد بن هارون ، وغيرهم بأحاديث قليلة . واشتغل بالعبادة ، وصحب معروفا الكرخي ، وهو أجل أصحابه . روى عنه : الجنيد بن محمد ، والنوري أبو الحسين ، وأبو العباس ابن مسروق ، وإبراهيم بن عبد الله المخرمي ، وعبد الله بن شاكر ([9]) . وكان يسمي معروف الكرخي بالأستاذ ، ولعل هذا متأتي من الاثر الذي تركه فيه الكرخي، فكان معروف يمثل له استاذا في الورع والزهد والوعظ ،وكان السري السقطي أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد وتكلم في علوم الحقائق وهو إمام البغداديين في الإشارات وله حكايات تكثر تستغني بشهرته عن ذكره والإطناب فيه وكان يلزم بيته ولا يخرج منه لا يراه إلا من يقصده إلى بيته انقطع عن الناس وعن أسبابهم وكان يسند الحديث ([10]) .

ويبدو ان السري كان في ابتداء حياته لا يؤمن بان العزلة عن الناس والاكتفاء بما لدى الانسان مذهبا ممكن ان يتبعه الانسان في ترويض النفس والمجاهدة ، الا ان طارئ طرأ له في حياته دفعه الى اتخاذ الزهد والتصوف مذهبا لتغيير حياته ، والبحث عن الحقيقة ، ولعله رأى ان البقاء في حلقة السوق والاندماج مع الناس لا يعطيه الفرصة الكافية للإخلاص مع الله وتنقية النفس من ملذاتها. فقد كان يجلس الى دكانه كل يوم وكان

يقول : (ليس الاعتزال عن الخلق شغلا كثيرا ، بل الرجل من يكون في السوق مشغولا بالحق ، غير غافل عنه طرفة عين) ([11]) .

وكانت تجارته في الاول بيع السقط من المتاع ، والسقط هي السلع الرديئة من المتاع نحو السكر والتوابل وغيرها ([12]) . ثم ان امرا ما طرأ على حياته ادت به الى تغيير مسراته كليا فقد تغير كل شيء في تفكيره وسلوكه ، وبدأ بترك العمل ومغادرة الدنيا الى عالم العزلة والاعتزال عن الناس ، ولعل هذا الطارئ الذي غير مجرى حياة السري السقطي ، ما يرويه هو عن نفسه فقد قال : مر بدكاني يوما حبيب الراعي ، فأعطيته شيئا وقلت اصرفه على الفقراء ، فقال : جزاك الله . فبردت على قلبي ([13]). وكانت هذه اول الخطوة الى عالم العزلة والتفكر بالخلوة والانفصال عن الواقع الى عالم تصفى فيه النفوس وتبحر فيه القلوب باحثة عن الحقيقة لعل امرا منها يتكشف ليرى نور الله بوضوح دون حجاب الماديات ولذات الحياة الزائلة .

ثم انه يخبرنا عن الصدمة الكبرى التي احدثت رنينا في ضميره وقلبه لتنقله الى عالم لطالما صفت فيه نفوس اهله وجفت فيه الشهوات ومنابع حب الدنيا ، ليتحول الحب للمعشوق الاوحد ، الذي لطالما جفاه احبته بغفلتهم عنه وانشغالهم باللهاث وراء اللذات والرغائب المادية الخالية من الطعم الابدي كونها زائلة ومتغيره ، وسريعة الانقضاء . فقد قال : جاء اليَّ معروف الكرخي يوما ، ومعه صبي يتيم ، فقال : اكس هذا اليتيم ، قال السري : فكسوته ، ففرح معروف وقال : بغض الله اليك الدنيا وكل ما انت فيه ، فقمت من الحانوت ، وليس شيء ابغض الي من الدنيا، وكل ما انا فيهمن بركات دعاء معروف ([14]) . هذه هي نقطة التحول التي حددها السري بنفسه ، ولعل الحقيقة ان السري كان تراوده هذا الفكرة ، وان الرغبة لم تكن وليدة هذه الكلمات فحسب انما الفكرة كانت تعتريه في اكثر من وقت الا ان المناسبة لم تحن بعد ، ولعل القدحة التي قدحها فيه معروف الكرخي كانت عاملا مباشرا في اتخاذ القرار النهائي للعزلة ومغادرة

الحياة المادية الى الا رجعة . فبالرغم من انه كان يزاول عمل التجارة الا انه كان زاهدا في الارباح ولعل الرياضة الاولى التي طبع نفسه عليها هي القبول بأقل الارباح التي كان يحصل عليها ، ثم انه كان يتصدق بذلك القليل وقد مر كيف اعطى حبيب الراعي مال للصدقة ، وكيف كسا الصبي اليتيم ، وهذه تعطينا دليلا على ان الرجل كان يمر بمرحلة المجاهدة ايام مزاولته التجارة وقد كان ينتظر الفرصة التي تجعله يغادر الحياة المادية وملذاتها . فقد نقل انه كان يبيع ويشتري وليس له طمع بالربح الا لكل عشرة نصف درهم ، فقد اشترى يوما لوزا بستين دينارا ، وقد ارتفع سعره فصار بتسعين ، وجاء دلالا ليشتري منه ، فقال لا ابيع الا بثلاث وستين فقال الدلال ولكنه صار بتسعين ، فقال السري : قد عاهدت الله ان لا اخذ اكثر من ذلك ، فقال الدلال : وقد عاهدت الله ان لا اغش مسلما ، ولم يأخذ منه ([15]).

وقد اعطى لهذا التحول حقه فقد بالغ في المجاهدة والرياضة حد لم يبالغ فيه احد في سعيه واجتهاده . قال الجنيد ما رأيت احدا اكمل في العبادة من السري ، مضى عليه ثمانون او تسعون سنة ما اضطجع الا في مرض موته ([16]) . حتى وان كان في هذا القول مبالغة الا انه لا يخلو من بيان شدة العبادة والمجاهدة التي كان يقوم بها السري .

ثم ان السري يتخذ بعد هذه المرحلة التي قضاها يتهيأ نفسيا لمواجهة المرحلة الاخرى في حياته، مرحلة الخلوة بربه والعزلة عن الناس والحياة ليكابد من خلاله المشقة والصبر والمجاهدة لعله يلقى الله وليس عليه من هم الدنيا وغمها ما يثقل كاهله . وهذا التحول نجده في سلوكياته واقواله ، فقد كان يرغب عن الناس ويود العزلة ، وكان يدعو الله ان يهب الناس علما يشغلهم عن المجيئ اليه ، وكان اذا طرق عليه الباب يقول : اللهم اشغل من يشغلني عنك بك ([17]).

ولم يكتفِ السري بأفعاله وسلوكياته في اعتزال الناس ، انما كان يدعو الى ذلك ويوعظ به ، فقد روي عن الجنيد انه قال ، سمعت السري يقول : من اراد ان يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس لان هذا زمان عزلة ووحدة ([18]) .

ولا يختلف السري عن غيره من المتصوفة في انتهاج هذا السلوك فقد كانت العزلة والمكابدة والمجاهدة ديدنهم في العبادة وصرف النفس عن الدنيا وملذاتها . فكان السري بأقواله تلك يحدد الاطار العام لحياة الانسان ضمن رؤيته الصوفية فقال : كل الدنيا فضول الا خمس خصال : خبز يشبعه وماء يرويه وثوب يستره وبيت يكنه وعلم يستعمله ([19]). فهو بهذا يتحدث عن الحاجات الضرورية لبقاء الانسان واستمراره في العبادة ، اما ما يسمى بالكمالية فقد عزف عنها ولم يذكرها .

وعن الجنيد بن محمد قال سمعت سريا يقول لولا الجمعة والجماعة لسددت على نفسي الباب ولم اخرج ([20]). وكان السري يرى ان التصوف يعني الاعراض عن الخلق ، وترك الاعتراض على الحق ([21]) . وعندما سُأل السري عن التصوف قال : اسم لثلاث معاني : وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب او السنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك استار محارم الله ([22]) .

والواضح ان المرحلة الاولى التي يمر بها المتصوفة هي مرحلة الخلوة والاعتزال والاعراض عن ما في ايدي الناس وعدم الانشغال ببهرج الحياة وزخارفها . لذلك كان التحول الاول لسري السقطي هو ترك دكانه والعزوف عن الناس والانشغال بالعبادة والتهجد والانقطاع التام الى الله .

وهذا الامر نجده واضحا في قول الجنيد فقد قال : ما اخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات ([23]) . فهذه هي المرحلة المهمة الاولى التي ما ان يجتازه الصوفي حتى يتحول الى المراحل الاخرى والتي يلاقي فيها الصوفي اشد المجاهدات والمكابدة ويحتاج منه الى الجهد والصبر . قال : ابو نصر

الطوسي : فأول شيء من التخصصات للصوفية وما تفرد بها عن جملة هؤلاء الذين ذكرتهم من بعد اداء الفرائض ، ترك ما يعنيهم وقطع كل علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم ، ثم لهم آداب واحوال شتى ، فمن ذلك ، القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها ، والاكتفاء بالقوت الذي لابد منه ، والاختصار على ما لابد منه من مهنة الدنيا ، من ملبوس ومفروش ومأكول ، وغير ذلك . واختيار الفقر على الغنى اختيارا ، ومعانقة القلة ، ومجانبة الكثرة ، وايثار الجوع على الشبع ، والقليل على الكثير ، وترك العلو والترفع ، وبذل الجاه والشفقة على الخلق ، والتواضع للصغير والكبير ، والايثار وقت الحاجة اليه ، وان لا يبالي من اكل الدنيا ، وحسن الظن بالله ، والاخلاص في المسابقة الى الطاعات ، والمسارعة الى جميع الخيرات ، والتوجه الى الله تعالى والانقطاع اليه ، والعكوف على بلائه ، والرضا عن قضاءه ، والصبر على دوام المجاهدة ومخالفة الهوى ، ومجانبة حظوظ النفوس والمخالفة لها ، اذ وصفها الله تعالى بانها امارة بالسوء ، والنظر اليها بانها اعدى عدوك التي بين جنبيك ، كما روي عن رسول الله ([24]) .

فهي الآداب والاحوال التي يجب على الصوفي ان يتصف بها كي يكون على الطريقة ويحافظ على اتباعها ومجاهدة نفسه فيها . فقد كان السري السقطي يتبع هذه الآداب والاحوال حتى عرج فيها الى مراتب المكاشفة ، فقد كان كثير المراقبة والمحاسبة لنفسه ، وكثير المجاهدة لها .

ينقل عن الجنيد انه قال : رفع السري إلي رقعة وقال : هذه لك خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلق فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فمالي أرى الأعضاء منك الكواسيا

فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى ... سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

لقد جسد السري هذه الابيات الشعرية سلوكا واقعيا وعمل بها حتى وصل الى درجات العشق والذوبان في الخالق . حكى أبو القاسم الجنيد قال دخلت يوما على خالي سري السقطي وهو يبكي فقلت ما يبكيك قال جاءتني البارحة الصبية فقالت يا أبت هذه ليلة حارة وهذا الكوز أعلقه هاهنا ثم إنه حملتني عيناي فنمت فرأيت جارية من أحسن خلق الله قد نزلت من السماء فقلت لمن أنت قالت لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان وتناولت الكوز فضربت به الأرض قال الجنيد فرأيت الخزف المكسور لم يرفعه حتى عفى عليه التراب ([25]) . فالمحاسبة للنفس في سلوك السري قائمة لا تتوقف ، ومراقبتها دائمة لا تبطل ، فهو يحاسب نفسه على شرابه وطعامه وحتى على ساعات نومه ، بل يحاسبها على ادق الامور . فقد امضى ثلاثين عاما من عمره يستغفر الله على كلمة الحمد قالها ، اذ احترق السوق الذي كان له فيه دكانا ، وقد لاقاه رجلا فقال له لقد سلم دكانك ، فقال الحمد لله ، قال ثم اني فكرت فلقيتها خطيئة ([26]). فأمضى عمره يستغفر الله لتلك الخطيئة التي حمد الله متناسيا ان اناسا اخرين تضرروا جراء الحريق فشغله نجاة دكانه عنهم مصيبتهم . وفي هذه الرواية بُعدا اخلاقيا لا يوصف ، اذ ان التصوف ليس رياضة الروح للخلاص من الذنوب والوصول الى مقامات ينجو بها الانسان الحساب والعقاب ويذوق حلاوة الجنة ، انما هي ممارسات اخلاقية وتربوية ممكن ان تجعل المجتمع اقرب للمحبة والايثار والتراحم منه الى الكراهية وحب الذات والانانية .

الرياضة الروحية :

ان محاسبة المتصوفة لأفعالهم وسلوكهم جعلهم يدققون في ابسط حاجاتهم ولوازمهم فهم يتحرون مصدر ما يأكلون ويشربون قال السري غزونا ارض الروم فمررت بروضة خضرة فيها الخيار وحجر منقور فيه ماء المطر فقلت في نفسي لئن اكلت يوما حلالا فاليوم فنزلت عن دابتي وجعلت اكل من ذلك الخيار وشربت من ذلك الماء فاذا هاتف يهتف بي يا سري النفقة التي بلغت لها الى ها هنا من أين؟ ([27]) . هي رياضة للروح ومجاهدة

لها لكي لا تغريها ملذات الحياة ، ولعل الهاتف الذي كان يسمعه السري ليس بالضرورة هاتف من السماء انما هو هاتف الضمير الذي اكتسبه من رياضته لنفسه ومراقبته لها ، فصارت لدى السري كوابح للنفس تمنعها ان تغتر حتى بالحلال . ان اكتساب الانسان لفعل والتعود عليه يتحول بمرور الايام الى طبع يدمن على فعله ولعل الصوفية بنقاء ارواحهم ونزع نفوسهم عما حولهم وانشغالهم بتنقية نفوسهم عن ما في ايدي الناس مكنهم من ضبط حركات النفس ونزعاتها. عن الجنيد قال سمعت سري بن المغلس يقول اشتهي منذ ثلاثين سنة جزرة اغمسها في الدبس واكلها فما يصح لي([28]). لم يكن السري خارج التفكير الصوفي الذي يسعى الى ادراك الحقيقة المحجوبة ، والتي لا تدرك الا بالمجاهدة والتضحية بالملذات ، وتطليق الدنيا حيث لا رجعة فيها ، من اجل الاتصال بتلك الحقيقة التي لا يتم الاتصال بها الا عن طريق حالة روحية خاصة . فلذلك نجد اللذين مارسوا هذه الرياضة تعاملوا مع الدنيا تعامل الغرباء وطلقوها طلاق بائن لا رجعة فيه ، قال معاوية بن ابي سفيان لضرار بن ضمرة الضبابي عند دخوله عليه في الشام صف لي علي بن ابي طالب ، قال ضرار: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا يا دنيا إليك عني ، أبي تعرضت ، أم إلي تشوقت : لا حان حينك هيهات غري غيري . لا حاجة لي فيك . قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها . فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير . آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ، وعظيم المورد ([29]) . فلم يكن السري بعيد عن هذه المجاهدة للنفس والترويض لها رغما عنها ، كون النفس تنزع نحو حاجاتها ورغباتها ، وتلح في اشباعها ، سواء كان ذلك الاشباع مباح او غير مباح ، الا ان المتصوفة لم يرغبوا لها حتى في الاشباع المباح ، وحرموها من ان تسعد بملذات زائلة ، وجعلوا السعادة في الخلوة والفقر والصبر .

وسمع السري يوما يقول أحب ان اكل اكلة ليس لله علي فيها تبعة ولا لمخلوق علي فيها منة فما اجد الى ذلك سبيلا ([30]) . فهو يحدد طرق الكسب في الطعام فلا يريد ان يأكل من طريق لا يعرف مصدره او يعرف مصدره الا ان فيه تبعه ممكن ان يحاسبه الله عليها وان كانت في ادق الامور ، ثم يريد ان لا يكون لأي انسان تدخل في صناعة ذلك الطعام ، فهو يريد ان تكون الحاجة لله وحده وليست للبشر فيها أي تدخل . فقد روى عن نفسه انه خرج يوما من مكة فقال : فلما اصحرنا ، رأيت في مجرى السيل طاقة بقل ، فمددت يدي فأخذتها ، وقلت : الحمد لله ، ورجوت ان تكون حلالا ليس لمخلوق فيها منة ، فقال لي بعض من راني وقد اخذتها : يا ابا الحسن التفت فالتفتُ ، فاذا مثل تلك الطاقة كثير ، فقال لي : خذ ، فقلت له : الطاقة الاولى ليس لاحد فيها منة ، وهذا بدلالتك ، وانما اريد ما لا منة فيه لمخلوق ولا لله فيه تبعة([31]).

لقد شكلت طهارة الطعام وحلية مصادر الحصول عليه هاجسا روحيا حاضرا باستمرار في شعور السري السقطي ، فقد كان يكثر ذكر طيب الطعام([32]) وتصفية القوت وشدة الورع حتى انتشر ذلك عنه وبلغ احمد بن حنبل فقال الشيخ الذي يعرف بطيب الطعام ([33]) . لقد كان السري ينظر الى اهمية طيب الطعام كونه يورث صفاءً للقلب ونقاوة له، وكان يرى في الشكر على النعم يتمثل بعدم عصيان اوامر الله ، والاستجابة لنواهيه ، فقد قال الجنيد ، كان اذا اراد ان يفيدني سألني ، فقال يوما : ما الشكر ؟ فقلت : ان لا يعصى الله في نعمة ، فقال : ما احسن ما اجبت ، وما احسن ما تقول . قال الجنيد : وهذا هو فرض الشكر ان لا يعصى في نعمة ([34]).

ولعل هذا كان سلوكا اتبعه اهل الطريقة من الصوفية ، فلم يكن الطعام شغلهم الشاغل سواء حظر ام لم يحظر ، اذ روضوا انفسهم على القليل منه ، والقبول بالكفاف ، وتعود الجوع واختيار الفقر ، فقد كان السري يحدث عن ابا يوسف الغسولي ، فقال : كان يلازم الثغر ويغزو ، وكان اذا غزا ودخلوا بلاد الروم اكل اصحابه من طعام

وفواكههم ، فيقول ابو يوسف : لا اكل ، فيقال له : اتشك انه حلال ؟ فيقول : لا اشك ، هو حلال . فيقال له : فكل من الحلال ، فيقول : انما الزهد في الحلال ، فكان السري يذم من يأكل بدينه ، ويقول : من النذالة ان يأكل العبد من دينه ([35]).

والواضح ان الصوفية ذهبوا في الزهد مذهب حرمان النفس من النعم التي اعطاها الله لهم ، ولعل منطلقهم في ذلك الحرمان لأشغال النفس بما هو اهم واعمق من الملذات الدنيوية والتحليق في عالم الربوبية الدائم ، كما ان الصوفي شغله البحث عن الحقيقة المطلقة التي كان يعتقد بانها لابد ان تدرك عن طريق تنقية القلب من الشوائب بمجاهدة النفس وحرمانها من الملذات والزخارف والمباهج الزائلة . اذا كان المتصوفة يعتقدون ان الحقيقة اذا اردنا ادراكها فلابد لهذه المجاهدة ، اذ ان حُجب تضرب على قلب الانسان فلا تجعله يدرك الحقيقة ، اذا لا يجتمع في جوف امرئ قلبان ، فلا يمكن ان يكون له اعتقادين متضادين في آن واحد فهو لا يمكن له ان يحب الدنيا ، ويحب الاخرة ، فحب الدنيا يجعله ينشغل فيها عن الاخرة ، بل عن البحث عن الحقيقة الالهية التي يسعى الصوفي الى ادراكها بالصبر والجوع والمشقة . فعلم لا يمكن ان يوصل الى تلك الحقيقة كونها تبقى في حدود العقل القاصر عن ادراك الحقائق كلها الا بمقدار الكسب ، واستحصال الحواس . اما القلب فبمقدوره ان يدرك الحقائق المطلقة لو نقي من الشوائب وما علق به من حب الدنيا . فقد كان الغزالي يرمي الى ذلك المذهب من حيث ادراكه ان الحقيقة لا تدرك بالعلم ، انما عن طريق اتباع سلوك الصوفية وطريقتهم ، فقد قال : (وظهر لي ان اخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فكم من فروق بين ان يعلم الانسان حال الصحة وحد الشبع واسبابهما وشروطهما ، وبين ان يكون صحيحا وشبعان ... فكذلك الفرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا انهم (الصوفية) ارباب احوال لا اصحاب اقوال ، وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم حصلت ، الا ما لا سبيل اليه

بالسماع وبالعلم بل بالذوق والسلوك) ([36]) . فالغزالي يجعل التصوف حالة روحية ونفسية خالصة ، فالسلوك والعمل من خلال المجاهدة والتدرج بالمقامات تمنح الصوفي القدرة على السياحة في عالم الملكوت ورؤية النور الالهي المحجوب بماديات الدنيا وزخارفها ، وان الذوق الذي يعني عند الصوفية النور الذي يقذفه الله في قلوبهم ليميزوا من خلاله الحق من الباطل ، لا يأتي من الكسب بالعلم انما يأتي بالإلهام والوحي او ما يسمى بالعلم الّدَنِيّ الذي يقذف في قلب الصوفي بعد ان يمر برياضات النفس ، لتتكشف له حقائق الغيب المحجوبة عن الاخرين الذين ليسوا على الطريقة .

المقامات عند السقطي :

كان السري يعدد عشر مقامات للمريدين من المتصوفة : فقد قال : للمريد عشر مقامات ، التحبب الى الله بالنافلة ، والتزين عنده بنصيحة الامة ، والانس بكلام الله ، والصبر على احكامه ، والاثرة لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود في محبوبه ، والرضا بالقلة ، والقناعة بالخمول ([37]) .

اما مقامات الخائفين فقد حددها بعشر مقامات ايضا ، فقال : الحزن اللازم ، والهم الغالب ، والخشية المقلقة ، وكثرة البكاء ، والتضرع في الليل والنهار ، والهرب من مواطن الراحة ، وكثرة الوله ، ووجل القلب ، وتنغص العيش ، ومراقبة الكمد ([38]) . ثم يرسم السري خريطة الطريق لمن ارد اتباع الطريقة فيبدأها بالتوبة ويقول : يصدر من التوبة الاجتهاد ، ومن الاجتهاد الصدق ، ومنه الزهد ، ومنه التوكل ، ومنه الاستقامة ، ومنها المعرفة ، ثم تحصل لذة الانس ، ثم الحياء ، ثم الخوف من مكر الله تعالى والاستدراج ([39]) . ولكي تبدأ تلك المجاهدة لابد ان تسبقها خطوات مهمة يرتقي فيها الانسان عن غرور الدنيا ، ويبتعدون عن طموحاتها البائسة ، فقال في رسم الطريق : باعدو انفسكم عن جيران الاغنياء واهل السوق وعلماء الامراء – اي الذين يحومون حول الامراء – ومن اراد سلامة دينه ، وراحة قلبه وجسده ، وقلة غمومه واحزانه فليعتزل عن الناس ، فان

الزمان زمان العزلة والوحدة ([40]) . ويمكن للنص ان يعطينا الحق في القول بأن المتصوفة كانوا يمارسون ثورة قيمية واخلاقية عظيمة ، فهم مارسوها بالصمت والزهد حيث رأوا تكالب الناس على الدنيا الى حد اضاعوا فيه قيمهم واخلاقهم ، لم تكن ثورة سياسية لتغيير الانظمة او استبدالها بأنظمة جديد ، اذ انهم كان يعتقدون جيدا ان العيب ليس في الانظمة وحدها انما العيب في الامة التي هجرت شريعتها واخلاقها فأنتجت انظمة فاسدة او محتالة ، فلو عدلت الامة من ميزان الاخلاق والقيم الانسانية لعاد ميزانها الى تعادل كفيه ، لذا كان الصوفية يعملون بمجاهدة النفس ورياضتها حتى يضربوا مثلا لبؤس تلك الحياة وعديم قيمتها وليرسموا صورة الزهد بالممارسة بأقصى حدود الزهد وليس بالأقوال او المواعظ التي ليس لها نصيب من التطبيق الا بحدود اللحظة ، فتعمق الصوفي بالمجاهدة والصبر على البلاء ، الا لإعطاء درسا للاتباع بحدود المستطاع من الناس والتنبيه الى الغفلة عن الذنوب لذلك قال السري: ما ابتلى الله تعالى احدا بشيء اشد من الغفلة ، والقلب القاسي ([41]).ولعل حديث علي بن الحسين بن حرب يكشف عن مدى مراقبة النفس التي كان يعمل بها السري في اشباع حاجاته ، فقد روى ان اباه ارسله بحب سعال الى السري – لسعال كان به – فقال السري : كم ثمن العلاج ؟ فقال ابن حرب : لم يخبرني بشيء ، فقال السري : اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نُعلم الناس منذ خمسين سنة ان لا يأكلوا بأديانهم ، ترانا اليوم نأكل بأديانا ([42]) . ولعل هذا يجعلنا امام تصور مهم في سلوكيات الصوفية اذ حرصوا على انطباق القول مع الفعل ، وان ما كانوا يقومون به من مجاهدات لا تتحمل ان يقال عنها رياء او حبا للظهور، انما جميعها ينحصر في دائرة الرياضات والمكابدة لتنقية النفس وتطهيرها وترويضها عن العلائق المادية .

قال الجنيد : سمعت السري بن مغلس يقول : لو احسست بإنسان يريد ان يدخل علي ، فقلت بلحيتي كذا – وأمر يده على لحيته كانه يريد تسويتها – من أجل دخول الداخل لخفت ان يعذبني الله على ذلك بالنار([43]). فبهذه الدقائق من الامور جاهد

الصوفي نفسه لكي يرتقي بها الى مقامات عظيمة لتتكشف له الانوار الالهية عن عظمة الخالق وقدرته ، التي حجبت عنه بالذنوب، لذلك كان الصوفي يمر بمقامات عدة يتحول من مقام الى مقام بعد ان يحقق ادب كل مقام ، وهذا لا يعني انه يترك آداب المقام الاول عند التحول الى المقام الذي يليه ، انما يحول آداب ذلك المقام الى ملكة سلوكية يمارسها مع آداب المقام التالي وهكذا حتى يهضم كل المراحل والمقامات ، فتحول الصوفي من مقام القناعة الى مقام التوكل ، تصبح القناعة ملكة يمارسها كل يوم في سلوكه وفعله ([44]) . فالسري بدأ بالتوكل على الله في كل شيء ثم العزلة عن الناس ، ثم بدأ بمجاهدة النفس عن ملذات الحياة فعاش الفقر والحرمان ، ثم الخوف من الله كأنه يراه في افعاله وسلوكه ، قال : غزوت راجلا فنزلنا خربة للروم ، فألقيت نفسي على ظهري ، ورفعت رجلي على جدار ، فإذا هاتف يهتف بي : يا سري بن مغلس هكذا تجلس العبيد بين يدي أربابها ؟ قال : فضممت إلى رجلي ، ثم قلت :وعزتك لا مددت رجلي أبدا([45]). فهو يحاسب نفسه وكأن هاتف يأتيه من السماء يحاسبه على ادق الامور ، وفي الحقيقة ان العقل الباطن الذي عمل عليه سري بن مغلس امتلئ بقيم التأدب بحضرة الله ، وكأنه قد وضع الله في ذهنه وضعا حضوريا يراه ويحاسبه ويدقق عليه اموره قد لا يخرج خارج دائرة الرقابة ، وهذا الهاتف الذي يتصوره السري انما هو هاتف الضمير الذي أنشأه سري لنفسه وصار من كوابح السلوك لديه .

ففي هذا السياق ترد الكثير من الروايات التي يعتقد البعض بانها خارقة للعادة او انها خارج التصديق العقلي ، وفي الحقيقة ان السري وصل بتصوراته الى استحضار دائم لهاتف السماء في المراقبة والمحاسبة ، وهو صنع ضمير عالي الضبط في الرقابة ، بعد تفريغ العقل والقلب من شواغل الحياة والتعلق بمباهجها فقد قال : رأيتُ كأنِّي وقفتُ بين يدى الله عز وجل، فقال: يا سرى خلقتُ الخلقَ فكلُّهم ادَّعوْا محبتي، فخلقتُ الدنيا فذهب منِّي تسعةُ أعشارهم وبقىَ معي العشر، قال: فخلقتُ الجنَّة فهرب منِّي تسعةُ أعشار العشر،

فسلَّطتُ عليهم ذرةً مِن البلاء، فهرب تسعةُ أعشار عشر العشر! فقلتُ للباقين معي : لا الدنيا أردتم، ولا الجنَّة أخذتم، ولا مِن النَّار هربتم، فماذا تريدون؟ قالوا: إنَّك لَتعلم ما نريد فقلتُ لهم: فإنِّي مسلِّطٌ عليكم مِن البلاء بعدد أنفاسكم، مالا تقوم له الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إذا كنتَ أنتَ المبتلى لنا فافعل ما شئتَ. فهؤلاء عبادي حقاً([46]) .

وهذه هي احدى اهم المقامات التي يصلها الصوفي وهي المحبة المطلقة لله مهما بلغت درجة الابتلاء ولعل هذا المقام لا يصل اليه الا بتطهير كامل للنفس من حب الدنيا ، والرغبة بالجنة ، والهرب من النار ، انما هو محبة خالصة لله . ولعل هذه المصداق نجده في قول علي بن ابي طالب اذ قال : ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا طمعا في جنتك ، بل وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك ([47]) .فالزهاد والمتصوفة لم تشغلهم اللذات الدنيوية بما حوت من زخارف ومباهج ولا لذات الأخرة كحور العين والغلمان وما اعد للمتقين من صنوف العطاء ، انما شغلتهم المحبة لله عن كل ذلك ، فكان شغلهم حبه وحده دون عطاياه . وكان المتصوفة يسمون البلاء نعمة اذا كان من الله ، وان الصبر على البلاء واجب الشكر تجاه تلك النعمة ، فكان السري يعطي للصبر معنى غير الذي نعرفه ، فقد قال : ومعنى الصبر ان تكون مثل الارض تحمل الجبال وبني آدم ، وكل ما عليها ، لا تأبى ذلك ولا تسميه بلاء ، بل تسميه نعمة وموهبة ([48]) .

وعن ابن ابي الورد قال دخلت على سري السقطي وهو يبكي ودورقه مكسور فقلت ما لك قال انكسر الدورق فقلت انا اشتري لك بدله فقال لي تشتري بدله وانا اعرف من اين الدانق([49]) الذي نشتري به الدورق([50]) ومن عمله ومن اين طينه واي شيء اكل عامله حتى فرغ من عمله ([51]).

وكانت المراقبة والمحاسبة للنفس في منظور السري قمة الشجاعة التي يصلها الانسان فهي تتحقق من خلال خمسة امور ، فقد قال : خمسة امور من كنَّ فيه فهو شجاع بطل : استقامة على امر الله ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، وتيقظ ليس معه

غفلة ، ومراقبة الله في السر والجهر ليس معه رياء ، ومراقبة الموت بالتأهب ([52]) . فهي قمة الشجاعة التي ينعت صاحبها بالبطل لكونها تحتاج الى قوة صبر والاجتهاد . فهو قلق بشكل دائم من ان يسود الله صورته لذلك كان يقول : اراقب انفي في اليوم عدة مرات مخافة ان يكون اسود خوفا من الله ان يسود صورتي لما اتعاطاه ([53]) . ولذلك كان يتمنى الموت في بلد غير بغداد خوفا من ان يلفظه قبره فيفتضح ([54]) مع شدة العبادة والاجتهاد في طلب القرب من الله ، وهو الذي لم يترك فضلا من الوقت للحياة جراء الاتصال الدائم بالعبادة . قال السري للجنيد : ان أمكنك ألا تكون آلة بيتك الا خزفا فافعل قال الجنيد : وهكذا كانت آلة بيته . وقال: سمعت سريا يقول رأيت الفوائد ترد في ظلم الليل قال وكان سري اذا جن عليه الليل دافع اوله ثم دافع ثم دافع فاذا غلبه الامر اخذ في النحيب والبكاء([55]) .

علاوة على ذلك كان اصحاب الطريقة من الصوفية لا يبخلون على بعضهم بالوعظ والوصايا والتنبيه الى الغفلة في ادق الامور وتفصيلاتها وان كانت في نظر البعض صغيرة لا يلتفت اليها، الا انها في ادب المتصوفة انشغال عن المجاهدة والعزلة ، سيما وهم حريصون على عدم اشغال القلوب واضاعة الوقت بغير العبادة ، فقد دخل ابو جعفر السماك شيخ السري عليه يوما ، وكان السماك شديد العزلة والابتعاد عن الناس ، فرأى عنده جماعة قد اجتمعوا فوقف ولم يقعد ، فنظر الى السري ، وقال : يا ابا الحسن ، لقد اصبحت مناخا للبطالين ، ورجع ولم يقعد وكره اجتماعهم حوله ([56]) .

ولعل ذلك يعطينا الحق ان نقول ان السقطي كان ممن يحضر عنده الناس على الرغم من اجتهاده في العزلة ، وتجنب الالتصاق بهم ، ولكن الذي يبدو واضحا ان الناس كانت تقصده اما للموعظة وقد اشتهر بمواعظه وحرصه على الاصلاح ، او يقصده البعض لتعلم طرق المجاهدة والصبر . وقد ورد في الروايات انه كان يحضر الى صلاة الجمعة ، كما ان له مكان خاص عرف به كان يغيره من حين الى اخر خشية الرياء ، فقد قال للجنيد

يوما وهو يحدثه : لقد خفيت عليَّ علة ثلاثين سنة . وذلك انا كنا جماعة نبكر الى الجمعة ، ولنا اماكن قد عرفت بنا ، لا نكاد ان نخلو عنها ، فمات رجل من جيراننا يوم الجمعة ، فأحببت ان اشيع جنازته ، فشيعتها ، واضحيت عن وقتي ثم جئت اريد الجمعة ، فما ان اقتربت من المسجد ، قالت نفسي : الان يرونك وقد اضحيت وتخلفت عن وقتك ، فشق ذلك عليَّ ، فقلت لنفسي : اراك مرائية منذ ثلاثين سنة وانا لا ادري ، فتركت ذلك المكان الذي كنت آتيه ، فجعلت اصلي في اماكن مختلفة لئلا يعرف مكاني هذا او نحوه ([57]) . ان المراقبة والمحاسبة مستمرة لدى الصوفي فهو لا يخفي ان يقول عن نفسه بالتقصير واللوم ، ويروض ما فيها من حب للدنيا ويرغمها على قبول ذلك . كما تعطينا الرواية تصور واضح عن ان السري كان يمارس فعلا ظاهرية من الشريعة ، اذ كان يحضر تشيع الجنائز ، ويحضر صلاة الجماعة في المساجد ، فهو بهذا يوازن بين ما هو نظري فقهي وبين ما هو باطني صوفي ، فلم يكن من اولئك الصوفية الذين كانت لهم شطحات في القياس جراء افراطهم بالوله والفناء ، اما السقطي فقد كان لا يبتعد في تصوفه عن مبادئ الشريعة ، ولا يهتم بباطن العلم دون ظاهره ، فكان يوازن بين ظاهر الشريعة وباطنها . فكان يقول : ثلاث من اخلاق الابرار : القيام بالفرائض ، واجتناب المحارم ، وترك الغفلة ([58]) . وقال ايضا في نفس السياق ، اذا ابتدأ الانسان ثم كتب الحديث فقد فتر ، واذا ابتدأ بكتبة الحديث ثم تنسك نفذ ([59]) . فهو يوازن بين الشريعة من جهة وبين التنسك من جهة اخرى ، ويعطي للعلم اهمية على التنسك في ابتداء الطريقة ، اذ يعتقد من الاصوب لمن اراد التنسك والزهد ان يكون ذلك على علم ، فقد روي عنه قوله : (من ادعى باطن علم لينقض ظاهر حكم فهو غالط) ([60]) . وقال افهم الناس وأذكاهم من فهم اسرار القرآن وتدبر فيها ([61]) .

ويتفحص السري القلوب تفحص العالم بها ، ويرى انها متى ما تلوثت ضرب عليها حجاب الذل ، واختفت عنها انوار عظمة الله ، وصارت اسيرة الشهوة واللذة الزائلة ، اذ

ان الركون الى الدنيا يقابله انقطاع الحبل مع الله ، فتطهير القلوب وتنقيتها من الغفلة يجعلها متصلة مع الله وتترقى في مقامات اخرى تنتظرها لتصل الى الحب الخالص في الله ، ورسم الطريق الى ذلك من خلال التغلب على النفس ، فقال : اقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه ، كان على أدب غيره اعجز ، ومن اطاع من فوقة اطاعة من دونه ([62]). ولعل المتصوفة في نظرتهم الى طهارة ونقاء القلب لم يخرجوا من دائرة الزهد التي اكدتها الاحاديث الشريفة فقد جاء عن النبي (ص) قوله : (اذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح ، قيل وما علامة ذلك يا رسول الله ؟ قال التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)([63]).

لا عجب ان القلوب التي يشغلها حب الدنيا تصبح كالشجرة التي يلتف بعضها حول بعض وكلما اشتد شغف الانسان بها كلما كبرت وغلظت اغصانها حتى اغلقت واستحكمت ولم يرى النور من خلالها فتصبح ظلماء موحشة .

ولكي يصل الصوفي الى تلك المرتبة من المقامات التي ينشرح فيها القلب ويدخل اليه النور ، لابد له من اشياء يجاهد فيها نفسه ، فلابد ان يبدأ من الخوف لله وحده ، ثم الرجاء لله وحده ، ثم الحب لله وحده ، حتى يصل الى الانس بالله وحده ([64]). هذه المقامات تحتاج الصبر والمشقة وتطهير القلوب ، اذ ان الخوف لا يأتي مالم يسبقه تطهير القلب من حب الدنيا والتوكل على الله والانابة اليه دون غيره ، وطلب ما عند الله والاستغناء عن ما في ايدي الخلق .

لم يكن عمل الصوفي عمل هينا انما شاقا بكل المقاييس ، فمن الصعوبة بمكان هزيمة النفس ورغباتها ، وترويضها على الزهد والمكابدة والفقر والعزلة .

الثورة الاجتماعية في المفهوم الصوفي :

ثمة امر ممكن الخوض به ، ان الصوفي كان بإمكانه ان يركن الى ممارسة حياة الزهد التي مارسها الانبياء والصحابة والتابعين ، دون ان يتعمق بحياة التصوف واحوالها والانتقال

بين مقاماتها مع شدة التحرز والاجتهاد ورياضة النفس وحرمانها من ابسط حاجاتها وخنق ملذاتها. الا اننا نعتقد ان الفترة الزمنية التي ظهر فيها التصوف شهدت تكالب الناس على الدنيا وان حقوق اخذت تنتهك وعزفا صار واضحا من قبل الناس عن حياة الزهد التي كان يمارسها النبي (ص) والصحابة والتابعين ، سيما بعد الرفاه الذي شهدته الحياة ابان فترة الدولة العباسية ، وان اتساعا شاسعا بدأ يتكون بين طبقات المجتمع ، وصار الفقير معدوما لا يلتفت احدا لحاله ، حتى علا تيار الاستبداد واضحت الفجوة غاية في الاتساع ، وصار لابد من ثورة اجتماعية تعيد الاذهان الى وعيها ، ولم يكن بمقدور المتصوفة ان يقوموا بثورة سياسية ، سيما وان الدولة العباسية في اوج عظمتها فضلا عن ان ابو جعفر المنصور استطاع القضاء على جميع التمردات السياسية واستقام له الحكم ، ثم من تلاه من الخلفاء ساروا على نفس الطريق ، وان ما حصل من استقرار سياسي امني ادى بدوره الى حياة الترف والملذات التي اتسعت ممارستها وابتعدت بعض الطبقات عن اجواء العبادة والشريعة ، فما كان من هؤلاء الزهاد العباد الا ان يجدوا لهم طريقة للتعبير عن رفضهم واستهجانهم لتلك الحياة الا من خلال التصوف وهو الاغراق بالزهد والعزلة وترك ما عند الناس الى ما عند الله (اجعل فقرك إلى الله تستغن به عمن سواه)([65]) . وقد رأى المتصوفة ان الحياة بمجملها زائلة لا محال وهي بما حوت من ملذات لا تدوم وانما الاخرة هي المقر ، وان الناس بمدد اعمارهم القصيرة يتهافتون عليها تهافت النمل على الحلوة ، وهم غير مراعون ما يدور حولهم من خطر اجتماعهم عليها . فكم من مجمع نمل قضي عليه بلحظة وما كان له ان ينجو بنفسه ولا يأخذ من تلك الحلوة شيء .

لقد كان التصوف في منظور اصحابه ثورة روحية ، اذ ان خلق الانسان بهذا الشكل المادي جعله وجها لوجه مع الطبيعة المادية ، مع انه مكون من ثنائية الروح والجسد ، فكان جل اهتمامه بإشباع رغباته الجسدية المادية واغفال حق الجانب الروحي الذي لم

يولي له الاهتمام ، كون المادة انجذبت للمادة ، اما الروح فهي الجانب الغاطس الذي لا نراه الا اننا نستشعر به ، وهو الذي سوف يبقى فيما بعد وله الخلود ، اما الجسد فيفنى ويزول ويبدل ، اما هذه المفارقة التي لم ينتبه اليها كثيرا اصحاب المادية اخذ المتصوفة يعالجون جدليتها بممارساتهم التي ترقى بالروح على المادة ، فهم يرون ان القلب لا يمكن ان تجتمع فيه حب الدنيا وحب الاخرة ، فأما الدنيا الفانية القصيرة الحقيرة ، واما الاخرة الباقية الخالدة ، ولم يكن بمقدورهم ان يوازنوا بين المادة والروح ، كونهم امام ثورة روحية اجتماعية لابد للمجتمع ان يعي اهمية الروح والانسلاخ من الدنيا بمجاهدة ومكابدة شديدة . فالصوفي ضحى بتلك الموازنة لينبه عن عظيم الانجرار وراء الزائل من احوال الدنيا ، وليرسم طرق المسالك لمن يرغب بالسير للوصول الى التنقية والتطهير القلبي بمقدار الاستطاعة ، فالمعلم لابد له ان يكون عظيم التأثير بتلاميذه واكثر معرفة بالأحوال ، واقدر على ممارسة الفعل ، ومثال للتطبيق . وقد قال السري : وددت لو ان حزن الخلق كلها القي عليَّ ([66]) . من منطلق كونه كان يشعر ان المصلح لابد له ان يكون اكثر تحمل واشد صبر من غيره ، فضلا عن ان السري يريد ان يضع نفسه في موضع الاختبار الاشد اذ لا يكفيه انه يتحمل بلاءه وحده انما يريد ان يحمل بلاء الخلق كلهم . فقد كان كثير النقد للعلماء الذين حصروا عملهم بالشهرة وذياع الصيت ، فقد قال للجنيد يوما ينصحه : اياك ان تكون ثناء منشور وعيبا مستور ([67]) . وقال : سئل حكيم من الحكماء ، متى يكون العالِم مسيئا ؟ قال : اذا كثر بقباقه ([68])، وانتشرت كتبه ، وغضب ان يرد عليه شيء من قوله هذا او معناه ([69]) .

كان السري ينتقد بشدة ان يكون العالم مجرد من قيم الاصلاح واداء روحية العبادة ، اذ من الواجب لمن يتصدى للعلم ان يأخذ بعين الاعتبار انه نموذج حي للتجربة الروحية في العبادة والزهد ومفارقة الدنيا باجتهاد وترويض للنفس ، اذ ليس للعالم ان يستبد برأيه وليس الافكار حكرا للعالم وحده ، وليس كثرة الكلام واشتهاره ، او كثرة التأليف

وانتشاره ، تكفي لان يكون الانسان عالما ، انها لربما تكون اساءة في نظر السقطي تحسب على العالم ، وليس محمودة له . فقد قال : فيا غماه من فتنة العلماء ، واكرباه من حيلة الادلاء ([70]) . وكان السري يقول : وإن بلية أبيكم آدم لقمة ، أخرجته من الجنة ، وهي بليتكم إلى أن تقوم الساعة ([71]) . اشارة الى تهالك الناس على الدنيا . ثم قال : أحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين عن القلوب، وألا تكون لما تهوى ركوب ([72]) . وهذه لا تأتي الا برياضة شديدة التحمل لا يطيقها الا من كان يريد ان يصل الى الحقيقة والدخول في ساحة العظمة الالهية ناظرا الى نور العظمة بقلب محب ولهان خالي من كل شائبة من شوائب الحياة .

وعن ابي عباس المؤدب قال دخلت على سري السقطي يوما فقال لأعجبنك من عصفور يجيء فيسقط على هذا الرواق فأكون قد اعددت له لقيمة فأفتها في كفي فيسقط على أطراف أناملي فيأكل فما كان في وقت من الاوقات سقط على الرواق ففتت الخبز في يدي فلم يسقط على يدي كما كان ففكرت في سري ما العلة في وحشته مني فوجدتني قد اكلت ملحا مطيبا فقلت في نفسي انا تائب من الملح المطيب فسقط على يدي فاكل وانصرف ([73]) .هكذا كان الصوفي في رقابة دائمة لنفسه ومحاسبة مستمرة لسلوكه ولطعامه وشرابه ، فهو مستعد دائما للتضحية بألذ الاشياء اذا كانت تباعده عن الله .

روى الجنيد بن محمد قال : كنت يوما عند السري بن مغلس وكنا خاليين ، وهو متزر بمئزر ، فنظرت إلى جسده كأنه جسد سقيم دنف مضني ، كأجهد ما يكون ، فقال : انظر إلى جسدي هذا لو شئت أن أقول إن ما بي هذا من المحبة كان كما أقول ، وكان وجهه أصفر ، ثم أشرب حمرة حتى تورد ثم اعتل فدخلت عليه أعوده فقلت له : كيف تجدك ، فقال :

كيف أشكو إلى طبيب ما بي والذي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة أروحه فقال لي : كيف يجد روح المروحة من جوفه تحترق من داخل ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يا رب إن كان شئ فيه لي فرج فامنن علي به ما دام لي رمق ([74])

قال الجنيد دخلت على سري السقطي وهو في النزع ، فجلست عند راسه فوضعت خدي على خذه ، فدمعت عيناي ، فوقع دمعي على خده ، ففتح عينيه ، فقال لي : من انت ؟ قلت انا خادمك الجنيد ، فقال : مرحبا ، فقلت له : ايها الشيخ اوصني بوصية انتفع بها بعدك ، قال :أياك ومصاحبة الاشرار وان تنقطع عن الله بصحبة الاخيار . ([75])

وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وقيل يوم الأربعاء لست خلون من شهر رمضان بعد الفجر سنة ست وخمسين وقيل سبع وخمسين ومائتين ببغداد ودفن بالشونزية ([76]) . وقبره ظاهر معروف وإلى جنبه قبر الجنيد ([77]).

الهوامش:

[1] ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين (ت711هـ) لسان العرب ، نشر ادب الحوزة (قم 1405هـ) ج3 ، ص196-197 ؛ الزبيدي ، محب الدين ابي الفيض (ت1205هـ) تاج العروس، تحق علي شيري، دار الفكر(بيروت 1414هـ / 1994م) ج2 ، ص481 .

[2] السهروردي ،شهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد(ت 632هـ)عوارف المعارف، دار الكتب العلمية(بيروت ، د ت) . ، ص44 .

[3] الغزالي ، ابو حامد محمد (ت505هـ) ملحق احياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية(بيروت ،د.ت) ج5 ، ص91 .

[4] القشيري ، زين الدين ابي القاسم ، الرسالة القشيرية ، دار جوامع الكلم (القاهرة ،د.ت) ص12 .

[5] ما سنيون ومصطفى عبد الرزاق ، التصوف ، دار الكتاب العربي (بيروت ، 1984) ص26-27 .

[6] الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج5 ، ص88-89 .

[7] ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين(ت681هـ)وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحق إحسان عباس ، دار الثقافة (بيروت 1986م). ج2 ، ص357 .

[8] الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت748هـ) تاريخ الاسلام ، تحق محمد البجاوي ، دار المعرفة (بيروت ، 1407هـ
/ 1987م) ج19 ، ص150.

[9] الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحق حسين الاسد، مؤسسة الرسالة (بيروت ، 1413هـ / 1993م) ط9 ج12 ،ص185

[10] ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن(ت571هـ) تاريخ مدينة دمشق ، تحق علي شيري ،دار الفكر(بيروت 1415هـ/ 1995م) ج20 ، ص167-168 .

[11] العطار ،فريد الدين النيسابوري ، تذكرة الاولياء ،مصحح: احمد آدم، ، مكتبة العطار النيسابوري(1439هـ) ص352 .

[12] ابن منظور ، لسان منظور ، ج7 ، ص317 .

[13] العطار ، تذكرة الاولياء ، ص352 .

[14] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص169 ؛ الصفدي ،صلاح الدين خليل ايبك (ت764هـ) الوافي بالوفيات ، تحق احمد الارناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث (بيروت 1420هـ/2000م) ج15 ، ص85 .

[15] ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن (ت597هـ) صفة الصفوة ،مطبعة دار المعارف العثمانية الهند (حيدر اباد دكن ،1389هـ/1969م) ج2 ، ص 210 .

[16] العطار ، تذكرة الاولياء ، ص352 .

[17] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ،ج2 ، ص211 .

[18] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص177 .

[19] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص211 .

[20] المصدر نفسه ، ج2 ، ص216 .

[21] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص177 .

[22] القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص17 ،

[23] المصدر نفسه ، ص34 .

[24] ابو نصر الطوسي ، السراج ، اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة (مصر 1960/1380م) ص29 .

[25] ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج2 ، ص357 .

[26] الخطيب البغدادي ، أبو بكر احمد بن علي (ت463هـ) تاريخ بغداد او مدينة السلام ، تحق مصطفى عبد القادر عطا ،
دار الكتب العلمية (بيروت 1417هـ/1997م) . تاريخ بغداد ، ج9 ، ص187 .

[27] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص173 .

[28] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص170 ؛ الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص189 .

[29] عبده ، محمد ، تحقيق نهج البلاغة للإمام علي ، دار المعرفة (بيروت ، 1412هـ) ج4 ، ص16 .

[30] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص188 .

[31] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص116 .

[32] الطيب : تعني كل شيء نظيف وطاهر وهي نقيض كلمة (الخبيث) . وهي تعني الحلال الطاهر . ابن منظور ، لسان العرب ، ج1 ، ص563 .

[33] الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج12 ، ص186 .

[34] ابو نعيم ،احمد بن عبد الله الاصفهاني (ت430هـ) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، دار الفكر (بيروت،1416هـ/1996م) ، ج10 ، ص119 .

[35] المصدر نفسه ، ج10 ، ص119 .

[36] المنقذ من الضلال ،تحقيق د. جميل صليبا ود. كامل عياد ،دار الاندلس(بيروت، 1967م) ص101 – 102 .

[37] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص117 .

[38] المصدر نفسه ، ج10 ، ص117.

[39] العطار ، تذكرة الاولياء ، ص361 .

[40] العطار ، تذكرة الاولياء ، ص358-359 .

[41] المصدر نفسه ، ص361 .

[42] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص117 .

[43] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق، ج20 ، ص180 .

[44] الحفني ، عبد المنعم ، الموسوعة الصوفية ، مكتبة مدبولي (القاهرة ، 2003م) ص964 .

[45] البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص187 .

[46] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص216 .

[47] النراقي ،محمد مهدي(ت1209هـ) جامع السعادات ، مطبعة النعمان (النجف ، د .ت) ص63 .

[48] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص119 .

[49] الدانق : من الاوزان وهو سدس الدرهم . ابن منظور لسان العرب ، ج1، ص105 .

[50] الدورق: الجرة ذات العروة التي تقل باليد . الزبيدي، تاج العروس، ج13 ، ص136 .

[51] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص210 .

[52] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص117 .

[53] الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ح12 ، ص186 -167 .

[54] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص182 .

[55] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص211 .

[56] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص119 .

[57] المصدر نفسه ، ج10 ، ص125 .

[58] المصدر نفسه ، ج10 ، ص123 .

[59] المصدر نفسه ، ج10 ، ص125 .

[60] المصدر نفسه ، ج10 ، ص121 .

[61] العطار ، تذكرة الاولياء ، ص361 .

[62] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج1 ، ص124 .

[63] السيوطي ،جلال الدين(ت911هـ) الدر المنثور ،دار المعرفة (بيروت ،د . ت) ج5 ، ص125 .

[64] السلمي ، عبد الرحمن (ت412هـ) طبقات الصوفية ،تحقيق احمد الشرباصي ، مطبعة دار الشعب (مصر، 1998،1419 م) ص21 .

[65] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص181 .

[66] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص118 .

[67] الديلمي ، شمس الدين محمد بن عبد الملك (ت589هـ) شرح الانفاس الروحانية للجنيد وابن عطاء ، تحقيق احمد فريد

المزيدي ، دار الكتب العلمية (بيروت ، د.ت) .ص59 .

[68] البقباق ، كثرة الكلام . الفراهيدي ، الخليل بن احمد (ت170هـ) كتاب العين ، تحق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ،

مؤسسة دار الهجرة (بيروت 1409هـ) ، ط2 ، ج5 ، ص30 .

[69] ابو نعيم ، حلية الاولياء ، ج10 ، ص119 .

[70] الجنيد البغدادي ، الاعمال الكاملة ، جمع وتحقيق سعاد الحكيم ، دار الشروق (القاهرة ، 2004م) ص126 .

[71] البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ، ص189 .

[72] ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج20 ، ص189 .

[73] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص213-214 .

[74] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج2 ، ص217

[75] المصدر نفسه ، ج2 ، ص217 .

[76] قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد مقبرة الشونزي وراء المحلة المعروفة بالتوثة بالقرب من نهر عيسى بن علي الهاشمي وسمعت بعض شيوخنا يقول مقابر قريش كانت قديما تعرف بمقبرة الشونيزي الصغير والمقبرة التي وراء التوثة تعرف بمقبرة الشونيزي الكبير وكانا أخوين يقال لكل واحد منهما الشونيزي ودفن كل واحد منهما في إحدى هاتين المقبرتين ونسبت المقبرة إليه . تاريخ بغداد ، ج1 ، ص134 .

[77] ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج2 ، ص359 .